بهجة الناظر

في التوسل بالنبي الطاهر

تأليف

خادم العلم الشريف

حسن السقاف

القرشي الهاشمي الحسيني الشافعي

١٤٠٥هـ -١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ، القائل لنبيه المكرم ، صلى الله عليه وآله وسلّم ، سنقرئك فلا تنسى ، أحمده سبحانه أن جعل نبينا أفضل الخلق على الإطلاق ، إذ أخذ سبحانه من جميع الأنبياء على أن يؤمنوا به وينصروه العهد والميثاق . وأشهد أن لا اله إلا هو الملك الحق المبين المنفرد بالخلق والتأثير والضر والنفع للعالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين والمبعوث رحمة للعالمين القائل : « إنما أنا رحمة مهداة [٢٢٥] » ، اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى كافة الأنبياء والمرسلين وآل كلٍ وصحب كلٍ أجمعين .

أما بعد :

فهذه رسالة أذكر فيها إن شاء الله تعالى أدلة التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلّم والاستشفاع به خاصة ، وبالأنبياء والصالحين عامة ، وبيان أن ذلك من الأمور المشروعات المندوبات بخلاف ما يدعيه بعض الناس في هذه الأزمان ، والله أسأل وبنبيه أتوسل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن يثيبني ومن وعاها أو نشرها إنه جواد كريم .

وقد جعلتها أربعة فصول :

ــ **الفصل الأول** : مقدمة في بيان قدره العظيم صلى الله عليه وآله وسلّم .

ــ **الفصل الثاني** : في سرد أدلة التوسل بذات الأنبياء عامة والنبي خاصة وبجاههم ومنزلتهم عند الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم إذ الصفة لا تفارق الموصوف .

ــ **الفصل الثالث** : في الاستئناس بأقوال علماء الأمة وحفاظ الإسلام بإيراد توسلهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلّم .

ــ **الفصل الرابع** : في رد شبه مانعي التوسل وبيان مغالطتهم للحق الصريح وذكر قاعدة عظيمة في مصطلح الحديث في بيان أنه لا يجوز لأي انسان أن يصحح أو يضعف حديثاً إلا أن يكون حافظاً [٢٢٦]

---

(٢٢٥) رواه الحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً وقال على شرطهما وأقرّه الذهبي وهو في مقدمة الدارمي (١٥) مرسلاً .

(٢٢٦) كنت أقول هذا إذ ذاك إبّان تصنيف هذه الرسالة سنة ١٩٨٤ تقريباً والآن أقول بأنه يجوز أن يصحح ويضعّف كل من تمكن وقويت معرفته وإن لم يكن حافظاً بالمعنى المشهور ، وهذا ما نصّ عليه النووي رحمه الله تعالى في التقريب .

وتعريف الحافظ سيمر هناك إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول

مقدمة

في بيان عظيم قدره صلى الله عليه وسلم

اعلم يرحمك الله تعالى أن الآيات والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة جداً أفرد لها حفاظ الإسلام مصنفات خاصة من أعظمها عندي بركة ونفعا كتاب الشفا ، للحافظ القاضي عياض المالكي رحمه الله تعالى ، ونحن نريد أن نوجز الأدلة في ذلك ، إذ ما نحن إلا عالة على فتات موائد أولئك الأعلام العظماء رضوان الله عليهم أجمعين .

فاعلم أن من عظم قدر نبيك المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم ، أن الله عز وجل نادى جميع الأنبياء بأسمائهم و لم يناده باسمه ، فقال في ندائهم يا نوح ، يا ابراهيم ، يا آدم ، يا موسى ، وقال له يا أيها النبي ، يا أيها الرسول ... وقد أخذ الله عز وجل الميثاق والعهد من الأنبياء أن يؤمنوا به ، وأن ينصروه إن أدركوه إذ قال سبحانه و لم يزل قائلاً عليماً تنبيهاً لقدر نبيه وتفخيماً : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبين لما آتيكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ (آل عمران الآية ٨١) .

ولهذا قال سادتنا علي ابن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة والسُّدي وقريب منه قول الحسن وطاووس كما ذكر ذلك الطبري وابن كثير وغيرهما من أهل التفسير : ما بعث الله نبياً من الأنبياء من لدن نوح إلا أخذ الله منه الميثاق ليؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلّم ولينصرنه إن خرج وهم أحياء ، ولهذا فما من نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا عنده علم به صلى الله عليه وآله وسلّم وبمبعثه وزمانه ومُهاجَره[٢٢٧] وعلاماته وأوصافه صلى الله عليه وآله وسلّم . قال تعالى : ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ البقرة : ٨٩ بل لم تعرف له صلى الله عليه وآله وسلّم قدره الأنبياء فحسب ، وإنما عرفت له قدره الأشجار والأحجار وشهدت له بالرسالة لتحث الناس على الإيمان به ، فأما الأشجار :

---

(٢٢٧) مُهاجَره بفتح الجيم مع ضم الميم أي المكان الذي سيهاجر إليه وهو المدينة المنورة .

فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في سفر ، فأقبل أعرابي ، فلما دنا منه قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم : « أين تريد ؟ » قال : إلى أهلي . قال : « هل لك في خير ؟ » قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » ، قال : ومن يشهد على ما تقول ؟قال : « هذه السَّلَمَة » ـــ يعني الشجرة ـــ فدعاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وهي بشاطيء الوادي ، فأقبلت تَخدُّ الأرض خدّاً ـــ أي شقاً ـــ حتى قامت بين يديه فأشهدها ثلاثاً فشهدت ثلاثاً أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها ، ورجع الأعرابي إلى قومه وقال : إن اتبعوني آتك بهم وإلا رجعت فكنت معك . رواه الدارمي والطبراني في الكبير وأبو يعلى والبزار ورجال الطبراني رجال الصحيح[٢٢٨] كما قال الحافظ الهيثمي .

وأما الأحجار وشهادتها :

فقد روى مسلم في صحيحه (٢٢٧٧) والدارمي في مسنده (٢٠) وغيرهما بأسانيد صحيحه من حديث جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم كان يقول : إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّمُ عليّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن[٢٢٩] » .

وفي مستدرك الحاكم عن سيدنا علي رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بمكة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال السلام عليك يا رسول الله » قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الحافظ الذهبي[٢٣٠] .

---

(٢٢٨) انظر « مجمع الزوائد » ٨/٢٩٢ ، و « جمع الفوائد » ، وسنن الدارمي (١٦) وهو حسن .

(٢٢٩) انظر « صحيح مسلم » جـ ٤/١٧٨٧ في كتاب الفضائل الحديث الثاني .

(٢٣٠) « المستدرك » ٢/٦٢٠ .

الفصل الثاني

بيان مشروعية التوسل وندبه

اعلم يرحمك الله تعالى أنه من الغريب جداً أن ينكر بعض من يدعي العلم وبخاصة علـــم الحديـــث الشريف (في هذه الاعصار) التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم سواء كان ذلك قبل وفاته أو بعد وفاته أو في يوم القيامة[٢٣١] . والحقيقة أن إنكارهم هذا لا دليل له مع معارضته للنصوص الصريحـــة الصحيحة كما سيتبين لك ، مع أن المسلمين علماءهم وعوامهم منذ عهد النبوة إلى هذا اليوم لا يزالـــون يتوسلون به صلى الله عليه وآله وسلّم ويسألون الله بجاهه ، وها أنا ذا أنقل لك ما استطعت أن أجده من الأدلة في مشروعية وندبية التوسل بالنبي وبالأنبياء والصالحين ، ولا أدّعي في ذلك أني قد سبقت إلى شيء لم يسبقني إليه أحد من قبل ، هذا مع قلة بضاعتي وضعف حيلتي وما غـــاب عـــني مـــن الأدلـــة أكـــثر مما وجدته . ونحن بهذا الصدد تبين أن التوسل جائز وسائغ عند أهل الحق ، وذلك على مقتضى الأدلـــة الشرعية التي وردت لنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وليس في ذلك أدنى شبه بشـــرك كمـــا يقول بعض الناس لأن الله تعالى هو المدعو وحده ولا شريك له في الخلق والتأثير وهذه عقيدة كل مسلم . وبجمع الأدلة كلها ويكفينا دليلاً في ذلك حديث الشفاعة يوم القيامة المتواتر من أن النـــاس في الآخـــرة يستشفعون الله تعالى برسله عليهم الصلاة والسلام ليأذن في فصل القضاء ويعتذرون واحداً حتى يرســـو الأمر عند سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام فيقول (أنا لها)[٢٣٢] ويشفع بســـأل الله الإذن في فصل القضاء للخلاص من حر الموقف وشدته اما إلى الجنة وإما إلى النار وهذه هي الشفاعة العظمى لـــه صلى الله عليه وآله وسلّم وله بعد ذلك شفاعات عديدة وكثيرات مذكورات في الأحاديث الصحيحة .

ومن شفاعاته في الدنيا بعد موته صلى الله عليه وآله وسلّم أنه يستغفر للمسيئين من أمته ، فعن عبد الله بـــن مســـعود رضـــي الله عنـــه قـــال قـــال رســـول الله صلـــى الله عليـــه وآلـــه

---

(٢٣١) ولاحظ أني لم أقل سواء كان حياً أو ميتاً لأنه صلى الله عليه وسلم حيٌ ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ، وقـــد صنفتُ في ذلك رسالة نقلتُ فيها بعد ذكر الأدلة التي منها الحديث الصحيح « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلـــون » كـــلام الحافظ البيهقي والحافظ القرطبي وابن القيم والسيوطي كما في كتاب « الروح » لابن القيم أن الأنبياء والشهداء أحياء .

(٢٣٢) الشفاعة ثابتة بقطعي الدلالات في القرآن والسنة ، لكن حديث الشفاعة الطويل هذا الذي رواه أنس بن مالك تغيّر رأيي فيه الآن وأنا أراه موضوعاً وهو من الإسرائيليات وإن كان في الصحيحين ، وقد تكلّمت عليه في التعليق على كتـــاب العلو للذهبي فارجع إليه إن شئت .

وسلّم : « حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم فإذا أنا مت كانت وفاتي خير لكم تعرض عليّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم » رواه البزار قال الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي رجاله رجال الصحيح[٢٣٣] .

فمن ذلك يتضح لك أن شفاعته ليست مختصة بيوم القيامة فقط بل في الدنيا أيضاً بعد وفاته .

وليس لمن يمنع التوسل والتشفع به صلى الله عليه وآله وسلّم بعد موته حجة صحيحة صريحة يصلح التمسك بها إلا تضعيف الأحاديث الواردة في ذلك ولا حق لهم في ذلك كما ستبين وتعمية الحق عن العوام بالمغالطة .

فأما التوسل فمعناه لغة : التقرب ، وأما اصطلاحاً : فهو التقرب والتشفع إلى الله عز وجل بمنزلة نبي أو ولي أو بالطلب من النبي أو الولي الدعاء للمستشفع بهم أن يقضي الله حاجته بشرط أن يكون المتوسل مؤمناً مقبلاً على الله راغباً .

قال الراغب في المفردات : « الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنى الرغبة قال تعالى : ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي كالقربة ، والواسل الراغب إلى الله تعالى » .

أقول : ويستفاد هذا المعنى من أهل العلم في توسلهم منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث يخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم متوسلاً في قصيدة ستأتي إن شاء الله تعالى في الفصل الثالث منها قوله رضي الله عنه :

بِكُمْ تَوَسَّلَ يَرْجو العفوَ عَنْ زَلَلٍ ... مِنْ خَوْفِهِ جَفْنُهُ الهامي لقد ذَرَفَا

وأعلم أيضا أرشدك الله للصواب أنه تقرر عند العقلاء أن الصفة لا تنفك أو لا تفارق الموصوف فمن قال أنا أتوسل بمنزلة النبي ولا أتوسل بذاته فهو بعيد عن جادة العقل والصواب ، إذ كيف تنفك الصفة عن الموصوف ؟!!

وأما الجاه فمعناه أيضاً المنـزلة ففي مختار الصحاح :

« الجاه القدر والمنزلة ، وفلان ذو جاه » .

فمما ذكرنا يتبين لك أن التوسل والتشفع وطلب الشيء بجاه وبمنـزلة الشخص كله بمعنى واحد .

---

(٢٣٣) انظر « فيض القدير » (٣/٤٠١) .

١ ـــ فأول ما يستدل به على التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ثبوت الشفاعة له صلى الله عليه وآله وسلم فاعلم أن الحفاظ والمحدثين رحمهم الله تعالى نقلوا لنا في كتبهم أنه مما تواتر : التوسل به صلى الله عليه وآله وسلّم في حياته وقد ذكر ذلك الإمام المحدث الكتاني في كتابه « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » الذي بناه على كتاب الإمام الحافظ السيوطي ، وذكر أيضا أنه ثبت وأجمعت الامة على التوسل به صلى الله عليه وآله وسلّم في عرصات القيامة في حديث الشفاعة الطويل وقد رواه من الصحابة اثنا عشر رجلاً . أقول وإجماع الأمة على أن الشفاعة يوم القيامة هي توسل به كما نقل ذلك الأئمة دليل واضح جلي كبير على أن معنى التوسل التقرب لرضى الرحمن ذلك اليوم بمنزلة الأنبياء ليسمح الله عز وجل في فصل القضاء وقد ثبت أيضاً بالأحاديث والآثار الصحيحة التوسل به قبل وفاته إذ لا فرق بين التوسل به قبل وفاته أو بعد وفاته ولا دليل ـــ كما أسلفت ـــ لمن يمنع التوسل به صلى الله عليه وآله وسلّم بعد وفاته .

٢ ـــ ويستدل أيضا للتوسل بحديث سيدنا عثمان ابن حنيف الصحابي المشهور في قصة الأعمى فقد روى الترمذي والنسائي والطبراني والحاكم والبيهقي بأسانيد صحيحة عن عثمان ابن حنيف وهو صحابي مشهور رضي الله عنه أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فقال ادع الله أن يعافيني فقال : « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير » . قال فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى ، اللهم شفعه فيَّ » . فعاد وقد أبصَرَ.

وفي رواية قال ابن حنيف :

فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضر قــط . وفي رواية الطبراني والبيهقي أن عثمان بن حنيف علّم رجلاً أن يدعوا بهذا الدعاء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلّم وهي رواية صحيحة صححها الإمام الطبراني الحافظ ، وأقرّه الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٤) ويستفاد من حديث سيدنا عثمان ابن حنيف في قصة الأعمى فوائد منها :

أولا : أن الرجل جاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلّم يطلب منه أن يدعو له والنبي صلى الله عليه وآله وسلّم لم يدع له بل علمه دعاء يقوله بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويتوسل في الدعاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله تعالى ، والقاعدة الأصولية تقول إن العبرة بعموم اللفظ وأن الأمر عام

---

(٢٣٤) انظر « مجمع الزوائد » (٢ /٢٧٨) . ولم ينكر أحد من الصحابة على عثمان ابن حنيف تعليمه التوسل لذلك الرجل فيكون هذا إقراراً منهم على مشروعيته .

والنبي صلى الله عليه وآله وسلّم مشروع فاستفاد العلماء أن هذا الدعاء الذي فيه توسل هو ما يسمونه دعاء صلاة الحاجة فذكروه في كتبهم في باب صلاة الحاجة ولم يذكروا أن ذلك لا يجوز أن يدعوا به مسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلّم .

ثانياً : إن معنى التوسل هو التَّشَفُّع لقوله في آخر الحديث « اللهم فشفعه فيّ » أي اجعله شفيعاً لي فشفّعه أي اقبل توسلي به . وهذا يؤكد تعريف التوسل الذي ذكرناه ، ويؤكد هذا أن في الحديث « يا محمد إني توجهت بك » وليس كما زعم بعضهم أن معنى « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك » أي بدعاء نبيك !! لأنه ذكر بعد ذلك محمداً تأكيداً وتصريحاً بالمتوسل به وسياق الحديث يبعد هذا الادعاء .

ثالثاً : لو كان التوسل فيه شرك أو شائبة شرك ما علّمه نبي الله صلى اله عليه وسلم للأعمى حين سأله أن يدعو الله له ، فقد علمه التوسل به . وإجازة التوسل في حياة المتوسَّل به لا بعد مماته لا يعتمد أصلاً شرعياً . وفعِلُ سيدنا عمر رضي الله عنه ليس فيه إلا التوسل بالحي وفعل الشيء لا ينفي ما عداه كما هو مقرر في الأصول ، على أن للعلماء توجيهات لعمل سيدنا عمر نذكرها عند ذكر الحديث .

٣- ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » [٢٣٥] في الاستسقاء حديثاً في التوسل فقال : روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن أبي صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر قال : أصاب الناسَ قحطٌ شديد في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فقال يا رسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا فأُتيَ الرجل في المنام فقيل ائت عمر وأقرئه السلام وأخبره أنهم يُسقَون .

وذكر الحافظ أن في إحدى روايات الحديث أن الرائي هو بلال بن الحارث الصحابي المشهور وفي ذلك تقرير من الحافظ على التوسل به صلى الله عليه وآله وسلّم بعد وفاته وليس المراد الاستدلال بالرؤيا إنما المراد الاستدلال بالفعل ، فكيف فعل هذا الرجل أو هذا الصحابي هذا الفعل أمام الصحابة وأخبر سيدنا عمر ولم ينكروا عليه ويصفوه بالشرك ؟ فحاشى الصحابة من الإقرار على الشرك حاشاهم ! وهم أعلم الناس بما يؤدي للشرك .

٤- وقد روي أيضاً أن النبي صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم قال لمّا دفن فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي رضي الله عنهما : « اللهم بحقي وحق الأنبياء من قبلي اغفر لأمي بعد أمي » رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم والطبراني في الكبير والأوسط وصححوه . ورجال الحديث رجال الصحيح إلا روح

(**٢٣٥**) انظر « فتح الباري » ٢/٤٩٥ .

ابن صلاح فيه ضعف لكن ذكره ابن حبان في « الثقات » ، وقال الحاكم : ثقة مأمون ، لذلك كان الحديث حسناً ، فقد قال الإمام ابن حجر الهيتمي في « الجوهر المنظم » هو سند جيد .

ففي الحديث توسله صلى الله عليه وآله وسلّم بالأنبياء من قبله وقد توفاهم الله تعالى .

٥- وفي صحيح البخاري (١٠١٠) و (٣٧١٠) أن عمر رضي الله عنه استسقى عام الرمادة بالعباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وآله وسلّم ، ومن قوله توسلاً به : اللهم إنّا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وآله وسلّم وإنّا نتوسل إليك بعم نبينا ، قال فيسقون .

وذكر العلماء أن اكتفاءه بالاستسقاء بالعباس إذ لم يستسق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلّم كان لدفع توهم عدم جواز الاستسقاء بغيره عليه وآله الصلاة والسلام لا لحق الاستسقاء بالحي حياة ظاهرة إذ أن الصحابة توسلوا به صلى الله عليه وآله وسلّم بعد موته دون نكير وقد أتينا بمثالين في ذلك فسيدنا عمر استسقى وتوسل بالعباس لدفع توهم عدم جواز التوسل إلا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلّم ولإظهار شرف آل البيت النبوي ، وقد توسل سيدنا عمر رضي الله عنه بالعباس لنكتة أخرى وهي جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، فإن سيدنا ومولانا علياً رضي الله عنه وكرم وجهه أفضل من عمه العباس فتوسل سيدنا عمر بالعباس لهذا الملحظ . ولهذا قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » عند شرح هذا الحديث : « ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس[٢٣٦] » اهـ .

ولم يقل الحافظ إنه يستفاد من هذا الحديث أنه لا يجوز التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بعد وفاته .

وفي الحقيقة إن توسل الصحابة رضوان الله عليهم كان بذات العباس ، وبدعاء العباس ، إذ ذكر الحافظ أن في بعض الروايات مما قال العباس في دعائه : « اللهم إن القوم توجهوا بي إليك لمكاني من نبيك »[٢٣٧] فلولا قربه ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لذهب سيدنا عمر لغيره من آل بيت النبوة فجعلوه وسيلتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

---

(٢٣٦) انظر « فتح الباري » ٤٩٧/٢ .

(٢٣٧) انظر « فتح الباري » ٤٩٧/٢

آل النـــبي وســـيلتي   وهـــم إليـــه ذريعـــتي
أرجـــو بهـــم أعطـــى غـــداً   بيـــدي اليمـــين صحيفـــتي

هذا وجميع ما أوردناه من الأحاديث والآثار الصحيحة الصريحة في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلّم بعد وفاته هي في الحقيقة شارحة لقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ فالآية عامة في حياته قبل وفاته وبعد وفاته وما زال عمل العلماء على ذلك وقد ذكر العلماء المفسرون لهذه الآية كالحافظ ابن كثير حكاية العتبي المشـــهورة عند العلماء في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلّم بعد وفاته على سبيل الإقرار والارتضاء ، وسنورد هذه الحكاية في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى وفي ذلك يقول الإمام ابن حجر الهيتمي في القصيدة الـــتي نظمها في إثبات حياة الأنبياء التي تشير إلى معنى الآية :

ولـــولا انـــه حـــي خَـــرِيٌ   بـــادراكٍ كمـــا نقـــل الفحـــول
لما ســـعت الشـــموس اليـــه حقـــاً   تُسلم حـــين تطلـــع أو تـــزول
ومـــا كـــان الحجيـــج اليـــه يسعى   ويرجـــو أن يكـــون لـــه قبـــول

هذا وقد أتينا على ما أردنا من بيان الأدلة على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليـــه وآلـــه وســـلّم واستحبابه وبالله تعالى التوفيق .

الفصل الثالث

في بيان أن العلماء الأعلام من أئمة وحفاظ الإسلام توسلوا به صلى الله عليه وآله وسلّم وأجازوا ذلك واستحبوه

اعلم يرحمك الله تعالى أنا بإيراد أقوال الأئمة السابقين في التوسل نوضح أننا لم نسبق إلى قول لم يذكره أحد من المسلمين ، بل نحن نجمع ما قالوه إذ هم مرجعنا وعليهم تعويلنا ، وهم الذين أوصلوا حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلّم إلينا ، وقد أمرنا الله بسؤالهم والرجوع إليهم فقال سبحانه : ﴿ **فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ وقال أيضاً مرشداً لنا أن نردّ الأحكام إليهم : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ فلا عبرة بكلام من قال نريد الأحاديث في المسألة ولا نريد أقوال العلماء ، فهاك أقوالهم وآثارهم في ذلك :

أولاً : اعلم أن الإمام مالكاً رضي الله عنه قال للخليفة المنصور لما حج وزار قبر النبي عليه وآله الصلاة والسلام وسأل مالكاً قائلاً : يا أبا عبد الله ، أستقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وأدعو ؟ فقال الإمام مالك : ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى بل استقبل واستشفع به فيشفعه الله فيك . قال تعالى : ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءُوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً** ﴾ . ذكر هذه القصة الإمام القاضي عياض في الشفا باسناد صحيح والسيد السمهودي في خلاصة الوفا والعلامة القسطلاني في المواهب اللدنية والعلامة ابن حجر في الجوهر المنظم[٢٣٨] .

ثانياً : وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره[٢٣٩] والإمام النووي في كتابه الإيضاح[٢٤٠] قال الإمام النووي في الإيضاح :

بعد أن يُسَلِّم الزائر على النبي صلى الله عليه وآله وسلّم ثم أبي بكر ثم عمر رضي الله عنهما يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ويتوسل به في حق نفسه ويتشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى ومن أحسن ما يقول ما حكاه أصحابنا — أي الشافعيون — عن العُتْبي مستحسنين له

---

(٢٣٨) انظر كتاب « الشفا » للقاضي عياض (٩٢/٢) ، و « شرح الشفا » للمحدث ملا علي القاري (٦٣٦/٣).

(٢٣٩) تفسير ابن كثير ٥١٩/١-٥٢٠ .

(٢٤٠) انظر حاشية ابن حجر على الإيضاح في المناسك للنووي صحيفة ٤٩٨ .

قال : كنت جالساً عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءُوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ . وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقـــاع أعظمـه فطاب من طيبهنّ القـاعُ والأكـــم

نفسي الفداء لقبر أنـــت ساكنـــه فيه العفاف وفيه الجـــود والكـــرم

قال العتبي : ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيناي فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في النوم فقال : يا عتبي إلْحَق الأعرابي وَبَشِّرْهُ بأنّ الله قد غفر له . اهـ .

وقال الحافظ ابن كثير انها حكايـــة مشهورة .

ثالثاً : وقال الإمام الشافعي متوسلاً بآل النبي عموماً أحياءً وأمواتاً كما في الصواعق لابـــن حجـــر الهيتمي :

آل النبــــي وســـيلتي وهـــم إليـــــه ذريعـــتي

أرجـــو بهـــم أعطـــى غـــداً بيـــدي اليمـــين صحيفـــتي

رابعاً : وثبت عن الإمام أحمد أنه قال : يستحب التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم عنـــد القحط ، مذكور في كتب الحنابلة في باب الاستسقاء ككتاب « الإنصاف فيما ترجح مـــن الخـــلاف » (٢/٤٥٦) .

خامساً : وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني يمدح النبي صلى الله عليـــه وآلـــه وســـلّم في قصيـــدة ويتوسل به :

يا أحسن الناس وجهاً مشرقاً وقفـــا بباب جودك عبـــدٌ مُذْنـــبٌ كَلِـــفٌ

من خوفه جَفْنُهُ الهامي لقد ذرفـــا بكم توسل يرجو العفـــو عن زلـــل

فطالمـــا فاض عذباً طيبـــاً وصفـــا وإن يكن نسبة يعـــزي إلى حجـــر

في الخلد يبدل من أبياته غُرَفَـــا والمدح فيـــك قصور عنكم وعســـى

فما أرى لمـــديحي عنـــك منصرفـــا لا زال فيـــك مديحي ما حييت لـــه

● انظر مجموعة القصائد النبهانية (٢/٣٩١) وديوان الحافظ ابن حجر العسقلاني .

سادساً : وقال ابن حجر الهيتمي في قصيدته المشهورة التي ذكرها العلامة الشيخ محمـــد حبيـــب الله

الشنقيطي وغيره :

عبيـــدٌ هيتمـــيٌ مُسْـــتَجيرٌ ... بمـن حُطَّـتْ بسـاحته الحُمـــولُ

سابعاً : وقال الحافظ ابن دقيق العيد في قصيدة له يمدح فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلّم ويتوسل به :

يا خاتم الرسل الكرام نــــداء مــن ... والى إليـك بمدحـه مستعــــذرا

أنا ضيفك المدعــو يــوم معادنـا ... المرتـجى فاجعـل قراي الكوثــرا

ثامناً : وقال ابن حجر العسقلاني أيضاً كما هو في ديوانه بخط القلم :

اصدح بمدح المصطفى واصدع بـــه ... قلب الحســـود ولا تخـف تفنيـدا

واقصد له واسأل بــه تُعـط المنــى ... وتعيش مهما عشـت فيـه سـعيدا

خـير الأنــام فمن أوى لجنابــــه ... لا بـدع أن أضحى بــه مسـعودا

انظر مجموعة القصائد النبهانية (٥٧/٢) .

تاســعاً : قــال العلامــة المنــاوي في « فيـض القديـر » (١٣٥/٢) قــال الإمــام الحــافظ السبكي : « ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلّم إلى ربه ولم ينكر ذلــك أحد من السلف ولا من الخلف » .

الفصل الرابع

في رد شبه مانعي التوسل

اعلم يرحمك الله تعالى أن مانعي التوسل ليس لهم في الحقيقة حجة صريحة من القرآن أو صحيحة من السنة بل ربما ذكر أحدهم قوله تعالى في كفار قريش وهم يعبدون الأصنام : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفــى** ﴾ . والجواب عن الآية الشريفة أن أولئك عبدوا الأصنام فسجدوا لها واتخذوها آلهة ونحــن لم نتخذ الأنبياء والأولياء آلهة ولم نعبدهم لذلك قال تعالى يصف عبدة الأوثان : ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة** ﴾ فسقط احتجاجهم .

وفي الحقيقة هم ينكرون التوسل من أربع طرق :

الأولى : تضعيف الأحاديث الواردة في التوسل وليسوا أهلاً لذلك كما سنذكر في القاعدة الحديثيــة في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

الثانية : تأويل الأحاديث وصرفها عن ظاهرها تأويلاً باطلاً وبمغالطة .

الثالثة : اعتمادهم على الرأي الفاسد في إبطال الأحاديث فإذا مرّ بهم حديث لا يوافق أهواءهم قالوا هذا الحديث لا يقبله العقل والرأي ، وكأن علم الحديث خاضع لعقولهم فما قبلته عقولهم فهو صحيح وما لم تقبله عقولهم فليس بصحيح .

الرابعة : إيراد أحاديث باطلة يرددها بعض من ينتسب إلى التصوف زوراً وبهتاناً . ويبينون أنها باطلة فيظن الجاهل أنه إذا اتضح أنها باطلة موضوعة ثبت منع التوسل وهيهات ونحن نمثل لك لهذه الطرق الأربعة :

فأما طريقهم الأول وهو تضعيفهم للأحاديث الصحيحة فنورد لك مثالين :

١ ـــ حديث سيدنا عثمان بن حنيف حينما علّم رجلاً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلّم أن يدعو بالدعاء الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقضاء حاجته وقد رواه الحافظ الطبراني وصححه وأقره عليه الحافظ أبو الحسن الهيثميُّ كما في « مجمع الزوائد » (٢٧٩/٢) وضعّفه صاحب كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » صحيفة (٢٣٧) بحجج واهية وهو ليس اهلاً للتصحيح ولا للتضعيف .

٢ ـــ حديث عبدالله بن مسعود مرفوعاً « حياتي خير لكم ... » الحديث .

ذكر الحفاظ أنه صحيح رواه البزار ، وقال الحافظ أبو الحسن الهيثمي في « مجمع الزوائد » رجاله رجال الصحيح . وقد ذكر الحافظ السيوطي في الجامع الصغير أنه رواه الحارث في مسنده بسند ضعيف وابن سعد في الطبقات بإسناد حسن مرسل ، وفاته أن البزار قد رواه بسند صحيح كما في « شرح الجامع » حيث تعقبه العلماء فاغتنم ذلك منكروا التوسل وعلموا أن الناس يتكاسلون عن مراجعة هذا الحديث في شرح الجامع فقالوا : هو حديث ضعيف ومرسل فلا يحتج به كما في الكتاب المسمّى « الإسلام والغلو في الدين » وهي خيانة علمية غير مستغربة من هؤلاء .

وأما طريقهم الثاني وهو تأويلهم للأحاديث تأويلاً باطلاً مخالفاً للحقيقة فمثاله حديث الأعمى أيضاً حيث جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يطلب منه أن يدعو له ليرد الله عليه بصره فلم يدع له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل علمه شيئاً آخر بعدما قال له :

« إن شئت دعوت وإن شئت صبرت » وقال له : « اذهب فأحسن الوضوء وصلِّ ركعتين ثم قل اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفّعه فيّ » ، أي : اقبل توسلي به ، وهم يقولون إنه لم يتوسل بالنبي إنما توسل بدعاء النبي !! وآخر الحديث ينقض ما قالوا فهذا تأويل باطل ، لا يسمن ولا يغني من جوع .

وأما طريقهم الثالث وهو اعتمادهم على وزن الحديث بأوهامهم فإن قبلت أوهامهم ذلك صححوه وإلا حكموا بضعفه أو بوضعه .

فقد قال صاحب كتاب « التوصل » صحيفة (٢٣٤) في حديث الطبراني في قصة الأعمى : أن هذا الحديث تتجلى فيه الصنعة في تركيب وترتيب الأفكار الواردة فيه !! فليراجع للتوسع .

وأما طريقهم الرابع وهو إيراد الأحاديث الموضوعة التي يحتج بها بعض عوام المتصوفة من غير العلماء وبيان أنها موضوعة ليظن العوام أن أدلة التوسل هُدِمَتْ فيعتقدون أنه غير جائز .

فقد ذُكر في الكتاب المسمى « الإسلام والغلو في الدين »[٢٤١] صحيفة (٢٢) حديث « توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم » وبينوا أنه موضوع وهو كذلك ليوهموا القارىء بأن أدلة التوسل هدمت ببيان وضع هذا الحديث .

الخاتمة

هذا وأختم هذه الرسالة بعون الله تعالى بقاعدة عظيمة ينبغي معرفتها والتمسك بها إذ بها يُهدم تصحيح وتضعيف مَن يَدّعي علم الحديث وهو ليس بأهل لذلك في هذا الزمان وغيره .

وملخصها : أنه لا يجوز لغير المتمكن الممارس قوي المعرفة في الحديث وعلومه أن يصحح حديثاً بعد زمن ابن الصلاح شيخ شيخ النووي ولا يجوز للحافظ أن يضعّف حديثاً بعد ابن الصلاح[٢٤٢] إلا الأحاديث التي لا تخفى كأحاديث القُصّاص الموضوعة أو ما فيه مخالفة للعقل والإجماع ، لخص هذه القاعدة الحافظ السيوطي في ألفيته في المصطلح حيث قال :

وخذه حيث حافظ عليه نص ومن مصنف بجمعه يُخص

قال السيوطي والحافظ هو من حوى مائة ألف حديث حفظا وفهماً رواية ودراية مع علمه بأسانيدها ورجالها منه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وفي ذلك قال بعضهم :

---

(٢٤١) وسماه مؤلفاه فيما بعد « أوهابية أم كتاب وسنة » بعد أن طبعاه حديثاً ليوهما أنهما ألّفا كتاباً جديداً في الفكر الوهابي الذي يخدماه ويتقاضيان عليه أجراً !!

(٢٤٢) كنا نقول ذلك في أثناء الطلب ونحن الآن نخالف ابن الصلاح في ذلك فنقول بأنه يجوز لمن تمكن وقويت معرفته بهذا الفن أن يصحح ويضعّف وهو عمل الحفاظ والمحدثين بعد ابن الصلاح ، فقد خالفوه و لم يلتفتوا فعلياً لما قال وإن ناقشوا عبارته نظرياً في كتب المصطلح فوافقوه عليها من جهة وخالفوه عليها من الجهة أخرى .

ومن حوى مائة ألف مطلقا   عليه لفظ حافظ قد اطلقا

كما ذُكِرَ في « رفع الأستار عن مُحيا طلعة الأنوار » صحيفة ٩ .

وقد ألحق العلماء بالتصحيح التحسين فذكروا أنه يجوز للحافظ أن يحسن ، ثم ألحقوا التوضيع بالتضعيف فذكروا أنه لا يجوز للحافظ أن يحكم بالوضع على حديث بعد زمن ابن الصلاح فالحاصل كما قال الحافظ جلال الدين السيوطي في « تدريب الراوي » (١٤٩/١) أن ابن الصلاح سد باب التصحيح والتحسين والتضعيف على أهل هذه الأزمان لضعف أهليتهم و لم يوافَق ابن الصلاح على الأول ــــ أي التصحيح ــ ووافقوه على الثاني وهو التضعيف .

وان أردت التوسع في المسألة والإحاطة بها أكثر فانظر « تدريب الراوي » (١٤٣/١-١٤٩) و « فتح المغيث شرح ألفية الحديث » للحافظ السخاوي (٤٤/١- ٤٥ و ٨٩) الفقرة الأخيرة في الصحيفة .

وبالله تعالى حُسن الختام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . فرغت من كتابته يوم الخميس لِلَيْلة بقيت من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعمائة وألف . والحمدلله رب العالمين .

قال السيد العلامة ابن عبيد الله السقاف :

ومعترض قال من غير نور   عهدناك حرباً لأهل الغرور
تشن النكير لحزب القبور   فما لك تنكر هذا الصنيع
فقلت استمع حجتي يا بغيض   وهل تقاس الذرى بالحضيض
على أن من كان جزل القريض   يُراعي المجاز لأهل البديع
فما في التوسل لي من ملام   ولا في مناجاة ما حي الظلام
وراجع كلام ابن عبد السلام   عزيز المعارف شيخ الجميع
وهذي الأدلة تكفي الفطين   ومن لم تفده ففي فيه طين
وشوط الأدلة عندي بطين   وحسبك هذا لئلا تضيع